

جولات في الأدب

للمؤستاذ محمد علي الدسوقي

« عرفنا الأستاذ الفاضل الشيخ محمد علي الدسوقي لغويا محققا ، وباحثا في فقه اللغة مدققا ، وكثيرا ما أمتنع قراء هذه الصحيفة بنفثات يراعت ، وهو اليوم ينتقل بنا إلى ميادين الأدب الصميم ، فيجول فيها جولات موفقة ، يتناول في ثناياها القديم والحديث واللفظي والمعنوي على السواء .

منعه الله بالصحة ورزقه السلامة ! »

التحرير

(١) الإيحاء في الشعر

لست أعنى بالإيحاء الشعري ما يوحى به إلى الشاعر رثيئه من الجن- كما يزعم جرير والفرزدق والأخطل أن لكل منهم رثيئا من الجن يوحى إليه خياله الشعري . ولا أقصد شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، وهم الذين أرادهم الله تعالى بقوله : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن » يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . ولا الهواتف كما يزعم بعض الشعراء أنه كان في بعض خلواته بمكة ينشد هذا البيت :

كأن لم يكن بين الحَجَّون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فأجابه الهاتف بقوله :

بلى نحن ككنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجد ودُ العوائر
ولمنا أعنى بذلك الإيحاء ما يلهم الشاعر من بيئة تحيط به ، أو ما يكتشفه من

مظاهر الطبيعة وصور الحياة من ناطق وصامت ، فإن كان الشاعر من أهل
الوهر وسكان البادية ، كان خياله مقصوراً على وصف الجبال الشاخنة ،
والأحقاف المترامية ، والسهول والوديان وما فيها من الوحوش الأوابد ، وما
تقتضيه معيشة البدو من حل وترحال ، وركوب الصحارى والقفار ، والتفاخر
بالكرم والفقر على ظهور الصافيات الجياد ، التي يتخذون من ظهورها حصونا ،
ومن جلود الأنعام بيوتا يستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم . والتغنى بالبأس
والنجدة ، والنخوة والكرم ، وحى الجار ، والذود عن الذمار . ينطق بذلك
قولهم :

إنا إذا اشتد الزمان وناب خطب وادلهم
ألفيت حول بيوتنا عدد الشجاعة والكرم
للقا العدا بيض السيوف وللندی حمر النعم
هذا وهذا دأبنا يودی دم ويراق دم

وقولهم :

إنا متى تأتينا تلهم بساحتنا تلقى الشجاعة خلقا والندی فينا
بيض صنائعنا ، سود وقائعنا خضر مرابعنا ، حمر مواضعنا
وإنا لئرى الشاعر البدوى وقد جف طبعه ، وأقفر خياله ، فلم يجد سوى
الكلاب العاوية ، والوحوش الضارية ، يتمثل بها في شعره ، فاذا ما استقر في
الحضر أخصب خياله ، ورق طبعه . وأتى بالمطرب المعجب . فذاك على بن
الجهم يقول في شعره حين أشرف من البادية يمدح الخليفة :

أنت كالكلب في حفاظك للودم وكالتيس في قراع الخطوب
فهم أنصار الخليفة بإيذائه ، فقال لهم : دعوه فستصبغه الحاضرة بصبغتها .
فلما أقام ببغداد ردحا من الزمن تصبغ بالصبغة الحضرية وأنشأ يقول :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جانب الهوى من حيث ندرى ولا ندرى
 وإن كان الشاعر من أهل المدر، وسكان الحضر، ألهمه وحيه تلك
 القصور الشاخنة، والمغان الباذخة، وما فيها من الحور والولدان، والمغنين
 والقيان، وضروب الملاهي والملاذ، ومجالس الأنس والشراب. وما يدور
 فيها من بنت الحان، وما يكتنف تلك القصور من جنات تجرى من تحتها
 الأنهار، وما فيها من بديع النور والأزهار، وشهي الفواكه والثمار.
 وليس الخيال مقصورا على المحسات والمشاهدات. فقد تسبح الروح
 في سماء المعقولات، وهناك تتلقى الوحي الإلهي، والفيض القدسي، والإلهام
 الرباني، الذي تتدفق الحكمة من جوانبه، وتسيل البلاغة من نواحيه، فتنبث
 من مخترعات الفكر أزاهير رائعة، وتقتطف من أغصانها ثمارا شبيهة يانعة.
 وكل هذه المظاهر والتخييلات يعتمد عليها الشاعر في تشبيهاته، وبقدر
 ملاءمته بين صور الأشياء، وصوغها في قالب شعري، يكون التفاوت في
 درجات البلاغة من الإسفاف^(١) إلى الإعجاز، وبين هذين الطرفين مراحل
 جمة، ومسالك وعرة، يتبارى فيها الشعراء. فمنهم من يحوز قصب السبق،
 ومنهم من يكبو به جواد الخيال؛ فيتخلف في حلبة السباق، ويرشق بسهام
 الملام، وما أشبه التفاوت بين الشعراء بالتفاوت بين الصاغة في حسن السبك،
 واختراع أجود الأشكال، وأبداع النقش، في حين أن لاتفاوت بينهم في
 جواهر المادة من فضة وذهب.

روى عن الجاحظ - وكان دميم الخلقة - أنه قال: ما غاظني إلا امرأة
 كانت جالسة على حانوت صائغ، فما إن مررت بها حتى قالت للصائغ: هاهو
 الذي أريد أن تنقشه على قرطى، فسألت الصائغ عن خبرها، فقال: إنها

(١) أنف الطائر طار فربق الأرض.

سألني أن أنقش على قرطها صورة الشيطان . فأجبته بأني مارأيت الشيطان قط حتى أرسم لك صورته . فلما رأته قالت ما قالت .

ولما كان الخدق في اختيار الصور وملاءمتها لما يتعرض له الشاعر من تشبيه مهمة شاقة لم يكن يرقى إلى أعلى مراتبها إلا فحول الشعراء ؛ لأنها تحتاج إلى ملابسات شتى من جودة اللفظ وشرف المعنى ، وسلامة الذوق ، وانتقاء وجه التشبيه واضحا جليا حتى لا يكاد السامع يتوهم أن التشبيه من غير جنس المشبه به ، انظر إلى قول مجنون ليلى ، وقد رأى ظبية :
فعيناك عيناها وجيدك جيدها سوى أن عظم الساق منك دقيق
وقول آخر :

أقول لظبي مرّ بن وهو رانع أنت آخر ليلى؟ فقال يُقال (١)

فقلت أفي ظل الأراكة والنقا يقال ويُستظل؟ فقال يُقال (٢)

فقلت يحار المستجير بحبيكم إذا ماجنى ذنبا؟ فقال يُقال (٣)

وقول آخر وقد أبدع في جعل الدموع والخمر من مادة واحدة :

تشابه دمعى إذ جرى رمدامتى فمن مثل ما فى الكأس عيناى تسكب
فوالله ما أدرى أ بالخمر أسبلت جفونى أم من عبرتى كنت أشرب؟
وقد يوفق الشاعر إلى صور من التشبيه لم يسبق إليها ، فتستوعب الأسماع ، وتأخذ بمجامع القلوب ، فإذا سمعها عشاق البلاغة خروا لها سجدا خاشعين .
وقد ورد أن جمهرة الشعراء فى سوق عكاظ كانوا ينصتون إلى لبيد بن ربيعة وهو ينشد معلقته ، فلما وصل إلى تشبيه الطلول — وقد جلا عنها السيل فأزال ما عليها من الرمال حتى بدت معالمها — بالكاتب الذى يعيد ما نحى من الصحيفة بقلبه حيث يقول :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبرٌ تجد متونها أقلامها

(١ و ٢ و ٣) يقال الأول من القول . والثانية من القيولة . والثالثة من الإقالة .

لما قال ذلك خروا له ساجدين ، وما كانت العرب لتسجد لشاعر قبله .
فلما بعث النبي ﷺ وتلا عليهم من آي الذكر الحكيم ما لم يسمعوا مثله
من قبل — على علو منزلتهم في البلاغة ، وامتلاكهم ناصية الفصاحة — خروا
له سجدا ، وقد نص القرآن الكريم على ذلك في بضعة عشر موضعا كقوله
تعالى : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا
ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يكون
ويزيدهم خشوعا) . وقوله : (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا)
إلى غير ذلك من الآيات التي ينبغي للقارئ والسامع إذا وصلا إليها وكانا
متطهرين أن يخرا ساجدين ويسمى سجود التلاوة .

وقد يرتج على الشاعر فيستوحى ماحوله من صور الأشياء لعله يظفر بما
يتم به التشبيه أو الشطر الثاني من البيت ، فيقيض الله له ما يلهمه مراده ، كما حكى
عن بعض الشعراء أنه كان يهيم قصيدة في مدح الخليفة افتتحها بالغزل على
عادة الشعراء في عصره فلما وصل إلى قوله في وصف محبوبته : بيضاء في دمع^(١)
صفراء في نعب^(٢) .

أرتج عليه ، فصار يحملق بعينه فيما حوله ليستلهمه فلم يظفر بطائل . وبينما
هو كذلك إذ رأى جارية في القصر بيدها صينية^(٣) من فضة موهة بالذهب
فقال على الفور : كأنها فضة قد مسها الذهب .

وارتج على أبي تمام وقد ابتدأ شطر البيت بقوله :

وأحسن من در على صدر قينة

ثم استغلق عليه إتمام البيت ، فصار يجول بخاطره علته يظفر بشيء أحسن
من هذا فلم يجد إلى ذلك سبيلا ، وبينما هو يخبط في دياجير الخيال ، وقد غاض

(٢١) الدمع بفتحين شدة بياض العين في شدة سوادها . والنعب شدة البياض .

(٣) يؤخذ منه أن الصينية عربية .

معينه وأكدي^(١) إذ سمع سائلا بالباب يستجدي ويقول : أعطونا من يياض
عطاياكم في سواد مطالبنا فألهمه تمة البيت وقال :

وأحسن من در على صدر قينة يياض العطايا في سواد المطالب

وقد وقع للبوصيري مثل هذا وهو يمدح النبي ﷺ في قصيدة البردة
لما وصل إلى قوله : (محمد سيد الكونين والثقلين) أجذب خاطره فلم يظفر
بتممة البيت ، فبات مهموما فرأى المصطفى عليه الصلاة والسلام في المنام
يقول له قل :

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم
فقام من النوم مسرورا حيث ظفربأمنييتين : رؤية النبي ﷺ، وإتمام البيت.
وقيل أيضا إنه كان به رمد فبرى فسمها البرأة بعد أن سماها البردة .

وقد حدث لي مثل هذا حينما أردت أن أنشيء قصيدة لأقدمها إلى زعيم
الامة الخالد الذكر سعد زغلول باشا حينما حضر من النفي . وكنت راكبا
القطار الذاهب من القاهرة إلى الفيوم ، فحاولت اختيار مطلع للقصيدة يكون
ذا روعة فلم أوفق ، وبينما أنا أقلب وجهي في السماء رأيت سحبا في الجوامتتالية
على هيئة أمواج البحر فقلت :

ياسماء النيل من أعلى الربا خلتك البحر إذا ما اضطربا
سحبك الأمواج تزجها الصبا تمطرين الروض قطرا أعذبا

وحياة الروض قطر السحب

ومنها :

مصر كالليث يسير الهيدبي^(٢) فإذا ماسم ضيا وثبا

(١) أكدي أصاب الكدية وهي الصخرة تعترض حافر البئر .

(٢) الهيدبي ضرب من الحير فيه جد ونشاط .

وهي في السلم كأسراب الظبا وهي في الروح كصف من ظبا
في أ كف الدارعين العرب

ثم أتممت القصيدة ووضعتها في إطار جميل ، وقدمتها إلى الزعيم الجليل .
ولما كانت الأخيصة الشعرية في زمن الدولة العباسية قد بلغت أوج الكمال
طاب لنا أن نشيد بذكر بعض شعرائها المبرزين كأبي نواس الذي أبدع في
وصف الخمر أيما إبداع وأتى فيها بالمعجزات كقوله :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
فهذا المعنى لم يطرقه شاعر قبله ، وكان يُعَدُّ في زمانه من المتناقضات ؛ إذ
كيف يداوى الداء بنفس الداء . ولم يدُر في تحكده أبي نواس ولا أهل
زمانه أن مذهبه هذا يعتنقه نطس الأطباء بعد ألف من السنين . فقد صار
الآن الدواء الناجع لبعض الأمراض المعدية يؤخذ من مادة الداء . ألم تر أن
المصل الواقي من الجُدري مستحضر من مادته وكذا مصل الخناق (الدفتريا)
والهيمضة (الكوليرا) . وغيرها من الأمراض ، حتى صارت جراثيم الأمراض
الفتاكة تربي ثم يحقن بها بعد قتلها فتكون خير علاج لتلك الأمراض . وما
عهدنا أبا نواس طبيباً ، ولكنه الإلهام الشعري يجعل أبا نواس طبيباً
نطاسياً رغم أنه . فليردد كل مريض الآن لطيبه قول أبي نواس : ودواني
بالتى كانت هي الداء .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن تنوه ببعض شعرائنا العصريين الذين ذاع
صيتهم في الآفاق ، وأحيوا عهد الدولة العباسية بعد أن نهضت مصر نهضتها
الأدبية ، ونفضت عنها غبار الخمول الذي خيم عليها دهرا طويلا . فهذا أمير
الشعراء أحمد شوقي بك خلف أبا تمام والبحترى في رصانة شعرهما ، وضارع
المتنبي في بديع حكمه ، حتى صارت بعض أبياته مضرب الأمثال في كل زمان
ومكان ، كما ضربت الأمثال بشعر المتنبي . فمن ذا الذي لا يتمثل بقول شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وقوله في رثاء المرحوم مصطفى كامل باشا .

دقات قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثوان
مأخوذ من قول الأول : (يامن ^(١) يُعَدِّ عليكَ العمرَ بالنفس) ولكن
شوقى أبدع في هذا الاقتباس وزاد عليه تشبيه دقات الساعة التي تحصى الدقائق
والثواني وقوله أيضا :

والجهل موت فإن أوتيت معجزة فابعث من الجهل أوفابعث من الرجم
ولا تنسى خيال حافظ بك إبراهيم وقد اقتنى أثر أبي نواس في الخمریات
حيث يقول :

خمرةٌ قيل إنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس
الخمر لا تعصر من الخدود ، وإنما تعصر من العنقود . ولكن لما كان ماء
الخدود القاني الرقاق يفعل فعل الخمر في الإسكار . ويحاكي لونها في الحمرة ،
جعاها الشاعر من مادة واحدة إغراقا في المبالغة . وخص يوم العرس بالذكر
لأن الغواني يبرزن فيه للناظرين بأبهى زينة وأجمل تطرية . وقوله على لسان
اللغة العربية :

أنا البحر في أحشائه الدركا من فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى وفيكم وإن عز الدواء أساتي
صور اللغة العربية في صور حسناء فاتنة أضناها المرض ، فبليت محاسنها ،
وحال لونها ، وهي تستعطف الأطباء ، علمهم ينقذونها من هذا الداء ، الذي
عز له الدواء .

هذا وللاستاذ على الجارم بك خيال خصب ، روحى ، من سماء الخيال .

(١) هو من مقطوعة لبعض الصوفية في الوعظ يقول فيها :

ترجو النجاة ولم تسلك طريقها إن السفينة لا تجرى على اليابس

أصخ بسمعك إلى قوله :

هذا دمى فى وجنتيك عرفته لا تستطيع ججوده عيناك
إنى أغار من الكؤوس فجنى كأس المدامة أن تقبل فاك
أراد بالبيت الأول أنها أصحته بنبل لحظها فأسالت دمه الذى ظهر لونه
على وجنتيها وقد كان انتقال الدم من إنسان إلى آخر خيالاً صاغته مخيلة الشعراء
ولكنه صار الآن حقيقة ، فهل نقل دم الجارم إلى محبوبته بطريق الحقن ؟
ولنداعبه بسؤال آخر وهو : بماذا عرف دمه فى وجنتيها . فهل حلل دمه ودمها
فوجدتهما من جنس واحد ؟

وقبس معنى البيت الثانى من قول بعضهم : (هذئت يا عود الأراك بشغرها)
ولكن الجارم وضع الكأس موضع السواك . وزاد فى المعنى الغيرة من
من الكأس فأحسن وأجاد . وقوله فى وصف بلاد الإنكاز :

بلاد كان الشمس ماتت بأرضها فظلت لها عين السحاب تدمع
انظر لما فى هذا المعنى من حسن التعليل ، فإن تهطل المطر فى تلك البلاد
لم يكن حزناً على الشمس . وقد عهدنا الشعراء قبل الجارم يصفون الشمس
بأنها مريضة على وساد الأفق وقد أصفر لونها من الضنى ، ولم يقل أحد منهم
أنها ماتت حتى أتى الجارم فأنبأنا بأنها ماتت فى بلاد الإنكاز ، فظلت السحب
تبكى عليها بدمع غزير وهذا من الأخيلة النادرة التى لا تعطى زمامها إلا للفحول
الشعراء .

(٢) المحسنات اللفظية

التناقض اللفظى

من سحر البيان وفنون البلاغة - التناقض اللفظى ، وهو أن يوهم الشاعر أو
النائر اجتماع النقيضين فى شىء واحد وفى حال واحدة ؛ ليدخل الغرابة فى روع

السامع فيقع في دهشة وحيرة ، ويخيل إليه أن المتكلم أتى بما هو خارق للعادة ومناقض لسنة الوجود . كقول امرئ القيس في صفة جواده :

مَكْرٌ مَفَرٌّ مَقْبِلٌ مَدْبِرٌ مَعَا كَجَلُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عُلِّ
فليس مما يجهزه العقل أن يقبل الفرس ويدبر ويكر ويفر في آن واحد ،
ولكن امرأ القيس أراد أن هذا الفرس لشدة عدوه يخيل للرائي أنه مقبل
مدبر في آن واحد ، كما يترأى للإنسان أن النقطة النازلة خط مستقيم لسرعة
سقوطها ، وأن النقطة الدائرة حلقة مستديرة لشدة دوراتها ، وقد وضع مراده
بقوله : كجلود صخر حطه السيل من عل . ولما كان هذا المعنى بعيدا عن
الفكر عند النظرة العجلى ، والإلمامة السابحة ، وكان تشبيهه بسقوط الحجر غير
كاف في كون الإقبال والإدبار من الفرس في وقت واحد إذ لا يتصور ذلك
مهما اشتد عدوه ، بين في البيت الآتي أن له نظائر يحسها الأطفال ، فضلا عن
أذكاء الرجال ، وذلك قوله :

دِيرِ كَخَذَرُوفِ الْوَلِيدِ أَدَارِهِ تَتَابَعُ كَفِيهِ بَخِيطٌ مُوَصَّلٌ
دِيرِ يَدِرِ الْعَدُوَّ كَمَا تَدِرُ الْحُلُوبَةُ اللَّبَنَ

أبان في هذا البيت أنه كخذروف الوليد وهو هنة مثقبة يوضع في ثقبها
خيوط تكون خيطا واحدا من الجانبين ويمسك الصبي طرفيه بيديه ويدبره
فيسرع في إقبال^(١) وإدبار ، ولشدة دورانه لا يمكن البصر أن يميز بين حركتيه

(١) الحركة الأولى التي إلى اليمين تحدث بتدوير الصبي والعكسية التي تكون إلى اليسار تحدث من
حركة القصور الذاتي ثم يستغنى عن التدوير بحركتي القصور الذاتي الناشئتين من المقاربة بين يديه
والمباعدة بينهما . وذلك أن الصبي يدبر الخذروف إلى اليمين بحركة مستمرة حتى تنقل الخيوط إلى اليمين
بحركة مستمرة حتى تنقل الخيوط إلى اليمين ثم يقارب بين يديه فينحل القتل ويدور إلى اليسار حتى يتم
الحل ثم يبعد بين يديه فيعود القتل كما كان ويدور في أثنائه إلى اليمين وهكذا دواليك . وهذا معنى قوله :
بخيط موصل أي موصل بخيط آخر إذ لا يدور بخيط واحد لا أن الخيط يربط بغيره كما توهم الزوزني في
شرحها .

فهرسث العدد الثالث من السنة السابعة

المقدمة	١
خطاب حضرة صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هكل باشافى	٥
افتتاح مجلس التعليم الاعلى	
للاستاذ محمد على الدسوقى	
جولات فى الادب	٢٠
السباعى بيومى	د
أسلوب المبرد فى كامله	٣٦
أحمد زكى صفوت	د
فتة خلق القرآن	٤٦
العقد الفريد: تعريف بالكتاب ومصادره	٥٥
محمد سعيد العريان	د
خطرات سريعة — من هنا وهناك —	٦٩
حسنين حسن مخلوف	د
الإنشاء فى المدارس الثانوية	٧٦
عبد الرزاق حميدة	د
المرومة المقنعة « قصة شعرية »	٨١
محمود غنيم	د
معجزة العيد « قصة »	٨٨
عبد العزيز عتيق	د
المرحوم الشيخ عبد الخالق عمر بك	٩٧

الطردية والعكسية ، ولا يكاد يفرق بين إقباله وإدباره ، وذلك أنه يدور بحركة طردية إذا باعد الطفل بين يديه ، وأخرى عكسية إذا قارب بينهما ، فجواده على هذا النمط ، ولعلك بعد هذا التبيان تحس أنك أفقت من غشية ، أو تنبهت من دهشة ، فله در امرئ القيس لقد برهن بهذا التشبيه الرائع ، أنه أشعر الشعراء غير مدافع .

ومثله قول بعض المتأخرين في محبوبته :

فأنت الهناء وأنت العذاب وأنت النعيم وأنت سقر
يوهم الشاعر أن محبوبته مصدر نعيم وجحيم ، فليست نفسها من مادة واحدة ، بل من عنصرين متناقضين ، ومعدنين متضادين ، وليس هذا مقصده ، وإنما يريد أنها إن وصلتته غمسته في النعيم ، وإن هجرته غمرته في الجحيم . فإن اختارت الخلة الأولى عدت من المحسنين . وإن اختارت الثانية اعتبرت من الظالمين ، فلتختار لنفسها ما يحلو .

ومن هذا الضرب قول أبي تمام في القلم :

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعى القاتلات لعبه وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل
لا يريد الشاعر أن مداد القلم هم زعاف ، وشهد شفاء في وقت واحد ، وإلا كان تناقضا حقيقياً ، وإنما أراد أن الممدوح رب القلم ، فإذا ما غضب كان ما يسطره قلبه من عقاب المجرمين كهم الأفاعى حيث يصب النقرة على من خالفه صبا . وإذا رضى كان سيبه كالشهد حلاوة إذا ما عصرته الأيدي العواسل .

وقد سمي النبي ﷺ هذا النوع من البيان سحرا حينما وفد عليه قيس ابن عاصم والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، فسأل النبي ﷺ عمرا عن الزبرقان فقال : مطاع في عشيرته ، شديد العارضة فيهم ، مانع لحوزته . فقال

الزبرقان: إنه ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي . فقال عمرو : أما وقد قال ما قال فوالله إنه لزم من المروءة ، ضيق العطن ، أحق الأب ، لنسيم الخال . فرأى التغير في وجه رسول الله لما اختلف قوله . فقال : والله يا رسول الله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الثانية . رضيت فقلت أحسن ماعلت ، وغضبت فقلت أقبح ما وجدت . فقال عليه الصلاة والسلام : إن من البيان لسحرا . وليس من هذا النوع قول الشاعر :

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأنك انخفاض وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع
لأن الشرط في التناقض اللفظي ألا يبين الشاعر أن القضاء في حالين
مختلفتين . وقد بين الشاعر أن الدنو في حال التواضع ، والعلو من جهة المجد
والشرف .

ومنه أيضا قول حافظ إبراهيم في الشمس :

وهي موت وحياة للورى وضلال وهدى للعالمين
يريد أنها متى لطفت حرارتها كانت مصدرا لتعاش وحياة . وإن اشتد وهجها
كانت مورد حثف وفناء . وأنها ضلال لمن يعبدها ، وهدى لمن يعلم أنها آية من
آيات الله ، وأكثر ما يكون التناقض اللفظي في الأحاجي والمعاني كقول
الحريري .

والكاتبون وما خطت أناملهم سطرًا ولا قرءوا ما خط في الكتب
الكاتبون الذين يكتبون الدواب أي يربطونها . وقول حفي ناصف بك :
ولا بسة من الياقوت تاجا تهقه لي إذا قبلت فاها
يريد النارجيلة (الشيشة) وليس لها من الياقوت تاج وإنما على رأسها
بصوة من نار . وليست تهقه ، ولكنها تهقبني . ومنه أيضا قوله بعضهم :

إني رأيت غزالا أورث قلبي خبالا
قد صار كلبا وقردا وصار بعد غزالا
صار هنا بمعنى ضم ، قال تعالى : (نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك) .
وقول آخر ملغزا في عدة أشياء (١) :

ربّ ثور (١) رأيت في حجر نمل وقطاة (٢) تحمّل الأثقالا
ونسور (٣) تمشي بغير رءوس لا ولاريش تحمل الأبطالا
وعجوزا (٤) رأيت في بطن كلب جعل الكلب للأمير حمالا
وأثانا (٥) رأيت واردة الما . زمانا ولا تذوق بلالا
وعقابا (٦) تطير من غير ريش وعقابا (٧) مقيمة أحوالا

(١) الثور النمل الذي يخرج التراب من الجحر العظيم .
(٢) والقطاة موضع الرديف من الفرس . (٣) والذسور بطون الحوافر .
(٤) والعجز السيف . وبطن الكلب جلد يصنع منه غمد السيف . (٥) والاثان
الصخرة . (٦) والعقاب الأولى التي تطير بغير ريش : البكرة . (٧) والعقاب المقيمة
أحوالا : اللواء .

وقولهم : ماشى لا ينطق إلا إذا شج رأسه وقطع لسانه ، وقد نظمته فقلت :
وأخرس لا يسيغ النطق إلا بشج الرأس مع قطع اللسان
هو القلم لا يكتب إلا إذا شق وقط .

الدور البلاغي

من محدثات المتأخرين ما يصح أن نسميه الدور البلاغي لأنه يشبه الدور
المنطقي لفظا وإن كانت الجهة منفكة معنى ؛ لأن الدور الحقيقي محال ، وهو أن
يتوقف كل من الشئيين على الآخر كأن يكون الابن والدا لآبيه . فن أمثلة
الدور البلاغي قول ابن الفارض :

(١) ومنه قول الشاعر :

لأنهم فراربا مررت به على فلو صك واكتبها بأسبار

فطوفان نوح عند نوحى كاد معى وإيقاد نيران الخليل كلوعى
 فلولاً زفيرى أغرقتنى مدامعى ولولا دمرعى أحرقتنى زفرتى
 يخيل للسامع أن الإغراق والإحراق ينفى كل منهما الآخر، مع أن
 السنن الطبيعى يحتم أن الماء متى باشر النار أطفأها ولا تنال منه شيئاً. ولو نظرنا
 إلى الواقع لم نجد اتصالاً بين هيب الشوق وبين سيل الدمع، لأن الجوى بين
 الضلوع. وليس متصلاً بالمآقى منبع الدموع، وعدم الاتصال الحقيقى هو
 الذى سوغ للشاعر أن يحكم بأن نار الحب حالت دون إغراقه بالدموع لأنها
 تبخرها عن كذب مثل ما تبخر نار الموقد ماء القدر، كما أن الدمع يطوى من نار
 الوجد، ويشفى من لوعة الجوى، كما قال الحريرى:

قلو قبل مبكاهها بكيت صباية بسعدى شفيت النفس قبل التدم
 ولكن بكت قبلى فهبج لى البكا بكاهها فقلت: الفضل للبتقدم
 وللعامية أمثال من هذا القبيل كقولهم للحدأة: مالك تخطفين؟ قالت من
 جوعى. قيل لها ومالك جائعة؟ قالت من خطفى. يوم هذا المثل أن كلا من
 الجوع والخطف يتوقف أحدهما على الآخر وهو محال. والحقيقة أن الخطف
 مسبب عن الجوع، وأن الجوع ليس مسبباً عن الخطف، بل الذى يتسبب عنه
 الشبع، ولكن الجوع يتسبب عنه فى النهاية حينما يعلم الناس طبع الحدأة فى
 السلب والنهب، فيحترسون منها، ويطاردونها أينما وجدت.

وما أشد انطباق هذا المثل على الأمم التى دأبها السطو على الأمم الضعيفة
 وسلب أراضيها بسبب ما بها من الفقر والفاقة. فهى وإن أشبعت نهمها فى أول
 الأمر إلا أن عاقبتها الدمار والفقر المدقع حينما تبلغ الأمم المغلوبة رشدها،
 وتسترد أرضها. فيكون السلب والنهب سبباً لما تعانيه من الذل والجوع
 والمهانة فى نهاية الأمر.

التسلسل

من فنون الأدب التسلسل^(١) ، وموقعه من النفس عميق ؛ لما فيه من سلاسة اللفظ ، وأخذ المعاني بعضها برقاب بعض كالقطار الذي تتابع عرباته ، وتلاحقت عجلاته .

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار» .

وقوله : «إن الله اصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار» . وقوله أيضا : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن اسحاق بن يعقوب بن ابراهيم» . ومنه قول أمير الشعراء :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

فانظر ما لهذا الضرب من الروعة وارتباط الأسباب بمسبباتها ، ومنه أيضا قول قس بن ساعدة : «أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فاحفظوا ، وإذا حفظتم فقولوا ، وإذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت» .

ولم يخل القرآن الكريم من هذا النوع ففيه آيات كثيرة منه كقوله تعالى : «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا» . وقوله أيضا : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفةعلقة ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» .

(١) التسلسل في الأدب خلافاً في المنطق إذ التسلسل عند المنطقية محال وهو ألا يكون لسلسلة الموجودات

مخلاف الخالق بداية ولا نهاية .

التجانس

هو أعم من التجنيس المسمى بالتجانس من جهة أن التجنيس يشترط فيه أن يتفق اللفظان في جميع الحروف أو بعضها ويختلف المعنى ، أما التجانس فلا يشترط فيه ذلك ، فقد يتفق فيه اللفظ والمعنى ، ويختص التجانس بأن يكون في آخر البيت وأول ما بعده ، وأن يكون الجناس فيه تاما كقول الأستاذ المرحوم محمد شريف بك من قصيدة يتغزل فيها بفتاة باريس حيث يقول :

إلى طالب المجد الأثيل أسير وقلبي عند الغانيات أسير
أسير إلى حور القصور فأجتلي شمساً وكاسات الشموس تدور
تدور بها هيفاء يجرح لحظها وقد غاب عنها حشمة ونفور
تبيت تعاطيني بكأس وتارة بشهد رضاب فاح منه عير

محمد علي الدسوقي